الفصل الثامن عشر

قال الشيخ : من دعاء الصوفية اللهم هبني البقاء بك بعد الفناء فيك . ولقد تحققنا من مقام الفناء ، ولننتقل إلى مقام البقاء بالله . لقد رأيتني في رؤ يا مع إمرأة اسمها نجلاء رمضان واقفين أمام فرن ، ولقد صنعت المرأة خفين من عجين ووضعتهما على النار ثم أعطتهما لي ، ثم وجدتني أنا وهي على سرير ، ونظرت فإذا أنا في الفضاء ومن تحتي الأرض بعيدة ، وأبصرت على الأرض امرأتين واحدة اسمها نهى والثانية أمل ، وأخذني الخوف من البقاء على هذا الارتفاع فهبطت .

والنجلاء العين ، ورمضان أشد الأسماء الإلهية خصوصية لقوله تعالى في الحديث القدسي : ﴿ كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو لي ﴾ فالصيام لله ، ورمضان شهر العبادة على الحقيقة .

إذن لقد كنت مع العين الإلهية أمام الفرن ، والفرن مصنع الخبز ، والخبز حياة لأنه مقوّم للحياة وبه العيش ، والاشارة إلى اسمه الحي تعالى . ولقد صنعت المرأة خفين من عجين ووضعتهما على النار ، ولقد سبق أن تحدثنا عن مقام خلع النعلين النفس والبدن أو الدنيا والآخرة، فالفاني استبدل بنعليه ، أي بوجوده النفسي والبدني وجوداً جديداً إلهياً أشير إليه بخفين مصنوعين من العجين الذي صنع من الذر اللطيف الإلهي (طحين) .

هـذا هو مقـام البقاء بـالله يابني ، وهـو مقام علوي فـوق العقل ، ولهـذا رأيتني جالساً مع المرأة على سرير أي على العرش أو الكرسي الإلهي الـذي وسع السموات والأرض . . ولهذا رأيت عـلى الأرض امرأتـين اسم أحداهمـا نهى أي العقل والثانيـة أمل ، أي أن حلمي تحقق بـزيادة في العقـل أو ما سميناه العقل القدسي الآخذ عن الله بلا واسطة .

والعـين هنا هي المـوحية . فـالعارف واصـل ، والواصـل لا حاجـة له في العقل ونظره وأحكامه واستنبـاطه واستنتـاجه . لا حـاجة للواصـل إلى عقله إلا لتعبير الرؤ ى ، فعمل العقل هنا أشبه بمن يقف أمام المرايا ليرى ما في المرايا من صور ثم يتعرّف هـذه الصور وفقـاً لمعادلـة المعراج الـروحي التي سبق أن تحدثنـا عنها .

وأول صفات الواصل التوحيـد ، فبعد التـردد بين الحـرية والجبـرية وبـين ثنوية الخـير والشر ، والحيـرة في معرفـة سر القضـاء والقدر ، نجـد الواصـل قد تكلم بلسـان التوحيـد من بعد أن شـاهد كشفـاً ما ارتسم عـلى شـاشـة الخيـال القدسي من عالم الغيب فعلم الأمر على حقيقته .

والواصل الموحد أمـة في رجل ، فيـه يظهـر الله كظهـور القمر في ليلة بـدر التمام ، فما من اسم من أسماء الله الحسنى إلا ورئي ظاهراً في صفحة هذا القمر الذي عكس نور الواحد الأحد فصار مجلاه .

وبتأييد من النور القاهر انقلب الواصـل من الإنسان الإنسـان إلى الإنسان الآله فعلقته القلوب كما علقت النسـاء يوسف الحسن بعـد أن ظهر الله فيـه بكل سناه وجماله .

ولأن النفس الجزئية شطر من النفس الكلية ، ولأنها منفية في عالم العناصر عن النفس الكلية ، ولأن بها شوقاً إلى الالتحاق بالنفس الكلية ، ولأن الواصـل قـد حقق الصلة بوصـوله إلى النفس الكليـة ، ولأنـه صـار مجـلى النفس الكليـة ولسانها الناطق وعينها النجلاء لهـذا ترى صـواحب يوسف قـد قطعن أيـديهن لما

رأين هذا الحسن الإلهي المتجلي في صورة بشر وقد خرج عليهن فقلن : (حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) .

هؤلاء الأقمار الذين يطلعون في سماء الإنسانية من حين إلى حين يفسرون قوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ ، فالنور لا يرى لأنه نور ، وقال عليه السلام لما سئل عما إذا كان يرى ربه فقال نور إني أراه ، فمحمد عليه السلام هو المرآة التي عكست هذا النور الذي شع وتلألأ وتكثف واتخذ من الألوان المنبثقة عن النور صورة هي صورة الحسن المحمدي الذي قال فيه سبحانه : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ .

ولئن تميز الإنسان عن الحيوان بالنطق ، والنطق فكر ، فلقد تميز الإنسان الكامل عن الإنسان العادي بالأخذ عن الله بلا واسطة . ففي الإنسان الكامل تحققت الإنسانية بأتم صورها وأبعد معانيها وصار الإنسان خليفة الله في الأرض .

والأنا الكلية يا بني أم الوجود وباطن الوجود ، وقلنا أن ما من صورة إلا وهي مجلى من مجاليها . فلغة هذه الأنا عالمية ولهذا كانت أقوال الصوفية حكماً خالدة على مر الزمان يتناقلها الناس كما يتوارثون الدرر والجواهر الكريمة .

وكل حديث للإنسان هو حديث صورة ، وحديث الصورة جزئي لأن الصورة جزء من الصورة الجامعة ، ويتفاوت كلام الناس قدراً بقدر اتساع صورتهم وشمولها ، ولكن كلام الإنسان الكامل هو عين الحكمة لأنه صادر عن عين الذات التي وصفها سبحانه بقوله : ﴿ إقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

فمحمد النبي الأمي أتى في مجال اللغة بمعجزة البيان الخالدة ، وتحدى بالقرآن بلاغة العرب وهم فحول اللغة وفرسانها ، وتحدى سبحانه بمعجزة القرآن

فقال : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله ﴾ ، وقال : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ . . ولما سمعت العرب هذا الكلام العجيب طأطؤوا رؤوسهم وعلموا أن هذه اللغة ليست لغة بشر .

وفي مجال التشريع ما تزال الشريعة الإسلامية مصدر دهشة للدارسين والفقهاء وعلماء الشريعة والقانون . ففي مجال الفقه والجمع بين الأصول والفروع قدم الإسلام كنوزاً من التشريعات لو ظلت مطبقة كما كانت لما عانينا ما نعانيه من مشكلات .

خذ مثلاً قضية القصاص في الإسلام ، وشعاره قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾ ، ونص الأصل على قطع يد السارق وعلى جلد الزاني ورامي المحصنات وشارب الخمر ، وتجد النتيجة لدى المقارنة بين ما يعانيه الغرب من جراء الاعتداء على الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وعجز الحكومات عن قطع دابر هذا السرطان الاجتماعي الخطير وبين النتائج المذهلة التي تحققت في بلاد الإسلام . ولكم هاجم المنتقدون الإسلام لوقوفه موقف المتشدد من السارق والزاني وشارب الخمر ، وقالوا في موقفه (اللا إنساني) ما قالوا ، وذهبت دول إلى حد تحريم عقوبة الاعدام شفقة بالمجرمين ، ولكن الواقع وحده هو الذي علم هؤلاء أن الصالح العام فوق الصالح الخاص ، وأن قطع يد السارق خير من قطع رزق المسروقين ، وأن رجم الزاني والزانية أعْوَد على الإنسانية بالفائدة من تفشي ظاهرة الزنا ودمار الأسرة وانتشار الأمراض الجنسية الفتاكة وظهور طبقة من الأطفال يُربون في دور للأيتام لأنهم لا يعرفون لهم أباً ولا أماً .

وانظر مثلاً إلى قضية الطلاق الذي حرمته الكنيسة الكاثوليكية إنطلاقاً من قول المسيح ما جمعه الله لا يفرقه البشر ، وكانت النتيجة أن الواقع هو الذي فرض نفسه فرضاً على الدول الغربية التي جعلت تقر الطلاق دولة بعد أخرى بشرط أو بغير شورط .

صحيح أن الطلاق شر ، وفي الحديث أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق

ولكن تبقى هناك مشاكل اجتماعية لا سبيل إلى حلها إلا بالاسلوب الذي تعالج به العملية الجراحية حالة من الحالات المرضية . فالناس فريقان صالحون وطالحون وهم معادن كالذهب والفضة والرصاص والحديد ، فإذا كان أحد الزوجين ذهباً والآخر رصاصاً فما تكون النتيجة ؟ ولئن كان أحد الزوجين حليماً وحلم عن زوجه الذي سفه عليه فما يكون الحال إذا اتفق وكان كلا الزوجين من معدن الرصاص ؟ ! الصالح قد يحمل الطالح ، والطالح هو عالة على الصالح ، ولكن عند كون كلا الزوجين طالحاً فالنتيجة كارثة ، كارثة للزوجين والبيت والأطفال ولا يضع حداً لهذا الوضع إلا الطلاق .

قال سبحانه : ﴿ الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، ولأنه يعلم ما لا نعلم فلقد أنزل شريعة ملائمة لنا ، ولأننا لا نعلم فلقد نضع شرائع قد تكون حلاً أمثل لقضية مؤقتة ولكنها لا تكون كذلك مع تطور الزمان . والله حين شرع الطلاق شرعه لعلمه تعالى بأحوال الناس ومعادنهم ، فالفارق إذن بين شريعة الله وشريعة البشر إن الشريعة الإلهية صالحة لكل عصر وزمان ومكان .

ثالثاً من صفات الإنسان الكامل المحبة ، وقال تعالى واصفاً نبيه ﴿ لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ، وفي وصف آخر لنبيه قال : ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم ﴾ ، وقال في سورة الحج : ﴿ واجعل أفئدة من الناس تهوي إليه ﴾ . فأنت ترى أن دعوة الإنسان الكامل هي دعوة إلهية يسندها النور الجامع الباطن لكل ظهور ، ولهذا كان مظهر النبي وكلامه مرآة هي من الجلاء والنصوع بحيث أن من رآه شد إليه ووقع من قلبه واستمعه وأحبه وآمن برسالته .

فالكلي هنا قد شد أزر الجزئي ، والمرآة المجلوة عكست كامل الأنوار الإلهية التي ضاءت فيها ، ولهذا قال سبحانه في رسوله وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحي . إنّ هذا الوحي الذي يوحي هو السر الذي جعل محمداً يتبوأ هذه المكانة في التاريخ قديمه وحديثه حتى أن أحد كبار علماء الغرب عده الشخصية الأولى في التاريخ كله عندما وضع كتابه المسمى المائة الأوائل .

إن صوت الهو يصبح في الإنسان الكامل وحياً لا يفارقه حتى أن صاحبه لا يحرك ساكناً ولا يتفوه بكلمة ولا يمشي خطوة ولا يبت أمراً إلا بإذن من صوته ، لا بل ويوحي إليه ما ينبغي أن يفعله .

لقد تحدثنا عن النبي كمثل أعلى للإنسان الكامل علماً أنه عليه السلام قال : العلماء ورثة الأنبياء ، وقال : علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل . فالعارف بالله هو من سلالة النبي وامتداد لظهور نوره ، نور من نور ، وهو هو تعيناً بانبثاق العين عياناً وتشخصاً .

لقد وضع أقطاب الصوفية كتباً في الإنسان الكامل ، وقالوا فيه ما قالوا ، وتجد في ما قالوه وصفاً لإنسان عرج في سماء المعرفة حتى نال مقام العبدية واستحق المعية الإلهية .

لقد انسلخ الواصل من ذاته ، والنفي نفي الجزئي ، والتثبيت هو تمكين العارف من مقام المعية بحيث يمكن القول إن الله قد ظهر في الإنسان الكامل وأنه هو في حال الاعتبار .

والعبدية يا بني أعلى مراتب الحرية ، لأن كل حال يكون فيه الإنسان هو تعين صورة ، وحتى الخلال الحميدة التي يتصف بها الإنسان كالحلم والمروءة هي صورة ، وكل خلة صورة . . ولهذا يشدد التوحيد على ضرورة انسلاخ العبد مما يظهر فيه من صور لأن الصورة حاجب كما سبق أن بيّنا . والحرية التي يتباهى الفلاسفة والمفكرون بالاتصاف بها هي عبودية خفية ، ولهذا قال العارف بالله رسلان الدمشقي : كلك شرك خفي .

أما مقام العبدية فهو الوصول إلى صورة الصور ، أو أم الصور ، أو رب النوع كما قال السهروردي . فالعبدية هي عين الحرية لأن صورة الصور هي أصل الصور ، وهي وريثة الصور إذ هي النور الجامع والنور القاهر .

فالعبد الصالح قد خرج بعبديته من أسر عبوديته لمظاهر الصور . ولما كانت أم الصور خير ، وهي مثال الخير والحق والجمال كما قال أفلاطون لهذا

أصبح العبد بدوره مثالاً للخير والحق والجمال ، فأية وراثة أفضل من هذه الوراثة ، وأية آخرة أعلى من هذه الآخرة . . أن يكون العبد مرآة للشمس عكست كل سنا الأنوار الإلهية ، وأن يمشي العبد في الناس وقد جُعِل له نور أي نور ، لا تحكمه صورة ، ولا تشده رغبة ، ولا يجذبه ظهور ، ولا يؤخذ من بين يديه ولا من خلفه، قد اطرح الجانب الظاهر وتوجه إلى الباطن يستمد منه المدد والعون ويرتاح إليه ويطمئن إليه عالماً علم اليقين أنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأن هذا المليك يريد به اليسر ، ولا يريد به العسر ، وأنه بشره بأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وهم في الآخرة هم الخالدون . سلام عليهم يا بني ، سلام قولاً من رب رحيم رحم عبده فاصطفاه وصنعه على عينه، وعلى عرش التمكين أجلسه ، يباهي العباد به قائلاً عبدي عبدي . والعبد في هذا المقام العالي قد ورث خير الدارين متصرفاً فيهما بإرادة رب المشرقين ورب المغربين .